

بعض المشاهد الصحراوية وأثرها في بناء الصورة الفنية في الشعر القديم

حمد النيل محمد الحسن^(١)

المستخلص

لقد كانت الصحراء العربية زاخرة بمشاهدها من رياح، وسراب، وكتبان، ودلاء، وأثاف وما يماثلها، تلك المشاهد عايشها الشاعر العربي فبقيت عالقة بخياله، كما احتلت حيزاً واسعاً من تفكيره، فبالإضافة إلى كثرة وصفه لها في كثير من قصائده فقد مثلت تلك المشاهد الصحراوية مصدر إحياء وحافزاً مهماً لخياله، أفاد منها كثيراً في تعبيره وبناء صورته الخيالية في أدبه شعراً ونثراً، فعلاوة على وصفه لها في شعره فقد أفاد منها كثيراً في تعبيره عن معاني الشعر الأخرى في كل الأغراض الشعرية التي طرقتها، فاستمد منها تشبيهاته واستعاراته وكنائياته التي قرّب بها معانيه، فأبداه في صورة أقرب ما تكون من خيال سامعه الذي يشاركه رؤية تلك المشاهد ومعايشتها، الأمر الذي يؤكد تعلق العربي بالصحراء ومشاهدها، حتى أصبحت مصدراً مهماً من مصادر الخيال عنده.

Abstract

The Arab Desert, was full of senaries, of winds, mirage, sand dunes, water pots and 'aethaf' and similar things. This, the Arab poet, lived in this environment, which remained sticking to his imagination; and occupied a wide space in his thinking. In addition, there were many descriptions of same, in his poems. These Desert sceiaries, composed s source of inspiration and an important motive, for his imagination; from which he benefited a lot, in his expression and the construction of an imaginary image, in his literature – both in poetry and prose. So, in addition, to his description of it in his poetry, he benefited a lot in his expression, for the other meanings, in all the other poetics needs, which he handled. He, further are his similarities.

By which he approached his meaning and exposed them in from which is much closer to the imagination of his audience, which shore with him seeing those scenaries and live them. This confirms the sticking of the Arab person, to the desert and its scenaries, unit it become an important source of imagination, for him.

(١) جامعة الخرطوم - كلية الآداب.

مجلة جامعة السلام (العدد الثاني- أغسطس ٢٠١٢م)

تمهيد:

تغطي الصحراء جزءاً عظيماً من بلاد العرب، وقد ارتبط العربي بتلك الصحراء ارتباطاً وثيقاً، فعرف الكثير من خصائصها وخباياها معرفة واسعة ودقيقة، تلك الخصائص المتمثلة في جذبها، وقلة مائها، ورعيها، وشدة حرها وحرورها وبردها، ووعورة مسالكها، ومن ثم ألفها وتواءم معها، وكيف نفسه لئتناسب مع ظروف العيش فيها، بل إنه قد بلغ من إلفه لها أن أحبها وأحب العيش فيها غاية الحب حتى أنه لا يرى مثيلاً أو بديلاً لها أو عوضاً عنها، وفي خبر تلك الفتاة الكلاية التي تزوجها الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان أقوى دليل على شدة تعلق العربي بصحرائه، فقد أتى بها معاوية من الصحراء وشظف العيش إلى الحضر، حيث القصور الأنيقة، والدور الواسعة، والحدائق الغناء، والمأكّل الطيّب، والمشرب العذب البارد، والملبس الناعم الجميل، والعيش الهانئ، ولكن رغم كل ذلك لم تهناً نفساً بالعيش في الحضر، فلم يزل شوقها إلى صحرائها الذي ملأ شغاف قلبها ينمو ويزكو، ولم تزل نار حنينها إلى موطنها مستعرة بجوفها ما دفعها إلى أن تبوح بشعرها مبدية ما تخفيه دواخلها؛ فسمعها معاوية وهي تتشد:

لَبِيتُ تَخْفِقُ الْأَرْوَاحُ فِيهِ	أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَصْرِ مُنِيفٍ
وَلُبِسُ عِبَاءَةٍ وَتَقَرُّ عَيْنِي	أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لِبْسِ الشُّفُوفِ
وَأَكُلُ كُسَيْرَةً فِي كَسْرِ بَيْتِي	أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَكْلِ الرِّغِيفِ
وَأَصَوَاتُ الرِّيحِ بِكُلِّ فَجٍّ	أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَقْرِ الدُّفُوفِ
وَكَلْبٌ يَنْبَحُ الطَّرَاقُ عَنِّي	أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قِطِّ الْوُفِ
وَبَكْرٌ يَنْبَغُ الْأَطْعَانَ صَغَبٌ	أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ بَغْلِ زُفُوفِ
وَحَرْقٌ مِنْ بَنِي عَمِي نَحِيفٌ	أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عِلْجِ عَلِيفِ
خَشَوْنَةُ عَيْشَتِي فِي الْبَدْوِ أَشْهَى	إِلَى نَفْسِي مِنَ الْعَيْشِ الظَّرِيفِ
فَمَا أَبْغِي سِوَى وَطْنِي بَدِيلًا	فَحَسْبِي ذَاكَ مِنْ وَطْنٍ شَرِيفِ

بعض المشاهد الصحراوية وأثرها في بناء الصورة الفنية في الشعر القديم

فلما سمع معاوية هذه الأبيات قال لها: "ما رضيت يابنة بجدل حتى جعلتني علجاً عنيماً"^(١). وكما يقول الدكتور عبد الله الطيب المجذوب (رحمه الله) عن تعلق البدوي بصحرائه وشغفه بها: "ولا يزال أخو الصحراء أبداً يتلفت بقلبه إلى مكان إقامة تركه وراءه ويتطلع لآخر ينتظره من أمامه وما الدنيا كلها إلا معالم بين هذين الطرفين"^(٢).

فعل ارتباط العربي بالصحراء وملازمته لها، وخبرته الواسعة بها، وبطبيعة العيش فيها، وتمعنه في مناظرها ومشاهدها المختلفة؛ قد ترك أثراً عظيماً في لغته وفكره وثقافته وأدبه على وجه أخص، ومن هنا فقد احتلت الصحراء برمالها ومساكنها ورياحها وشدة حرها وبردها جزءاً عظيماً في الأدب العربي القديم، فقلما تجد قصيدة لأي شاعر بدوي تخلو من وصف للصحراء ومشاهدها على نحو قول الشاعر سويد بن أبي كاهل الشكري^(٣):

وَقَلَاةٌ وَاضِحٌ أَقْرَابُهَا^(*) بِأَلْيَاتٍ مِثْلَ مُرْفَتِ الْقَرْعِ^(**)
يَسْبَحُ الْآلُ عَلَى أَعْلَامِهَا وَعَلَى الْبِيدِ إِذَا الْيَوْمُ مَتَعَ^(***)
فَرَكِينَاهَا عَلَى مَجْهُولِهَا بِصِلَابِ الْأَرْضِ^(****) فِيهِنَّ شَجَع

وما أكثر الأمثلة على ذلك في الشعر العربي، ولكثرة ما ورد من وصفها في أشعارهم؛ عد النقاد وصفها ووصف السير فيها؛ غرضاً من الأغراض الرئيسة التي لا بد

(١) خزائن الأدب ولب لباب العرب - عبد القادر بن عمر البغدادي - تحقيق عبد السلام هارون - مكتبة الخانجي - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م ٥٠٣/٨.

(٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها - دكتور عبد الله الطيب المجذوب - مطبعة دار جامعة الخرطوم للطباعة والنشر ١٩٩١م ١٤١/٣.

(٣) المفضليات - المفضل محمد بن يعلى بن عامر الضبي - تحقيق د. عامر الحسين - دار ومكتبة هلال - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٩٨م ١١٢.

(*) أقرابها: نواحيها.

(**) القرع: بقايا الشعر بالرأس الأصلع، يريد أن يصف الصحراء بخلوها من النبات.

(***) اليوم متع: ارتفعت شمس.

(****) صلاب الأرض: الخيول صلبة الحوافر.

للشاعر العربي القديم أن يقف عندها في كل قصيدة من قصائده، كما يقول ابن رشيق القيرواني: "والعادة أن يذكر الشاعر ما قطع من المفاوز، وما أنضى من الركائب، وما تجشّم من هول الليل وسهره، وطول النهار وهجيره، وقلة الماء وغووره، ثم يخرج إلى مدح المقصود..."^(١) وفوق ذلك فإنّ بقية الأغراض الأخرى في القصيدة العربية لا تكاد تخلو من تأثير واضح للصحراء، بل ربما يكون ورود كل تلك الأغراض في القصيدة العربية نتيجة مباشرة للعيش في الصحراء، فوصف الأطلال الذي اعتاد الشعراء أن يفتتحوا به قصائدهم لم يكن إلا نتيجة من نتائج العيش في الصحراء، إذ لا يكاد العربي يألف فيها موطناً ومستقراً دائماً له، بل يقضي حياته متقللاً بين أرجائها، ومن هنا جاء ذكر الأطلال ووصفها في الشعر العربي القديم، كما أن الشاعر غالباً ما يتطرق في كل قصيدة من قصائده إلى وصف الراحلة (الناقة)، ويكفي من صلتها بالصحراء أنهم كانوا يسمونها (سفينة الصحراء)، ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك في معرض تشبيهه لناقته إلى وصف حيوان الصحراء (حمار الوحش أو الثور الوحشي أو الظليم)، ثم وصف الصحراء نفسها الذي أخبر عنه ابن رشيق، وأخيراً يأتي الشاعر إلى الغرض الرئيس الباعث على نظم القصيدة، ومن هنا يتضح أن الشاعر العربي القديم قد كان لصيقاً بالصحراء في معظم الأغراض التي يبني منها قصيدته.

ولم يقف كلف العربي بالصحراء عند حد وصفها في شعره فحسب، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فاتخذها أصلاً من أصول التعبير عنده، مستعيناً بخياله الخصب في استنباط معان جديدة منها؛ ليعبر بها عن معان أخرى تدخل في كل أغراض الشعر العربي المختلفة دون أن تكون لتلك المعاني أو الأغراض صلة بالصحراء، وهو إذا يفعل ذلك إنما يكون قصده تقريب تلك المعاني من خيال سامعيه أيضاً، وعلى هذا النحو من كلام العرب وردت كثير من معاني القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف،

(١) العمدة - أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - دار الجيل - لبنان

بعض المشاهد الصحراوية وأثرها في بناء الصورة الفنية في الشعر القديم

والأمثال العربية القديمة. فمما جاء على نحو هذا الأسلوب في القرآن الكريم تصويره سبحانه وتعالى لمعنى بطلان أعمال الذين كفروا في صورة سراب بفلاة يحسبه الظمآن ماء : {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} (سورة النور: ٣٩) يقول القرطبي في تفسيره: "وهذا مثل ضربه الله تعالى للكفار، يعوّلون على ثواب أعمالهم، فإذا قدموا على الله تعالى وجدوا ثواب أعمالهم محبطة بالكفر؛ أي لم يجدوا شيئاً كما لم يجد صاحب السراب إلا أرضاً لا ماء فيها؛ فهو يهلك أو يموت"^(١). وهكذا قرّب الله سبحانه وتعالى هذا المعنى من فهم العربي بضربه لهذا المثل، بإيراد هذه الصورة المألوفة لدى كل من عاش في الصحراء أو سافر فيها.

ومن أمثلة هذا الأسلوب أيضاً في الحديث النبوي الشريف قوله (صلى الله عليه وسلم): "لله أشد فرحاً بتوبة عبده، حين يتوب إليه، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبيتا هو كذلك إذا هو بها، قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح"^(٢). فهذا المثل الذي ضربه النبي (صلى الله عليه وسلم) لبيان فرحة الله سبحانه بتوبة عبده يدركه جيداً كل من عاش في الصحراء أو ضرب في طرقها ومجاهلها، وكذلك الحال في كثير من أمثالهم وأقوالهم السائرة، وما ذاك إلا دليل واضح على ما احتلته تلك الصحراء من حيز واسع في خيال العربي، فهو كلما أراد أن يعبر عن معنى من المعاني وجد صورة الصحراء بمشاهدها المختلفة حاضرة بخياله وشاخصة أمامه، لينتقي منها ما يستعين به على تقريب معانيه من خيال من يخاطبهم، وذلك لأن الإنسان بطبيعته يتأثر خياله بما حوله من مشاهد البيئة المختلفة وتجاربه معها، كما يقول

(١) الجامع لأحكام القرآن - محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي - تحقيق أحمد عبد العليم البردوني - مطبعة دار الشعب - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٣٧٢هـ - ٢٩٢/١٢.

(٢) صحيح مسلم - أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري - المكتبة العصرية - بيروت ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ١٠٢٥. مجلة جامعة السلام (العدد الثاني - أغسطس ٢٠١٢م) (١١٩)

الدكتور عبد الواحد وافي: "من أجل ذلك أيضا كان قسط كبير من مادة الخيال والتشبيه في كل لغة مستمداً من مظاهر البيئة وما اختصت به طبيعة البلاد"^(١). وكذلك يربط الدكتور حسين الصديق الشكل الأدبي بالبنى الاجتماعية والاقتصادية أيضاً إذ يقول: "فالأسلوب التعبيري المستخدم بين العمال على سبيل المثال يختلف في مفرداته وتراكيبه عن أسلوب الفلاحين والتجار... إن اختلاف الأسلوب باختلاف فئات المجتمع يعني ارتباط الشكل الأدبي بالبنى الاجتماعية والاقتصادية لتلك الفئات"^(٢). ولعل ذلك أوضح ما يكون في الشعر العربي الذي عوّل فيه الشعراء العرب القدامى على الصحراء ومشاهدها المختلفة التي ارتبطت بها حياتهم فعلقت في أخیلتهم يستوحون منها كثيراً من تشبيهاتهم واستعاراتهم وكنایاتهم ومجازاتهم، فأصبحت الصحراء بمشاهدها مصدراً مهماً من مصادر الخيال في شعرهم ومن تلك المشاهد الصحراوية التي تتبوأ الصدارة في بناء صورهم الخيالية^(٣):

الرياح:

الرياح من الظواهر الطبيعية التي لها أعظم الأثر في حياة ساكني الصحراء، وذلك لقلة ما يعترض طريقها من غابات أو أشجار فيخفف من شدة وقعها عليهم، ويتمثل تأثيرها عليهم في اقتلاعها خيامهم، وإخفاء معالم طرقهم، إضافة إلى كونها دليلهم على معرفة فصول السنة التي تترتب عليها أمور حياتهم، ومنها حلهم، وترحالهم، ورعيهم، وزراعتهم، وتجارتهم؛ فهبوبها من الشمال يعني قدوم فصل الشتاء بشدة برده وجفافه وما يترتب على ذلك من هزال الماشية، وقلة الألبان والطعام، وقد ينتهي بهم الأمر إلى الارتحال طلباً للكلأ والماء، ولذا كان حرص شعرائهم على مدح ممدوحهم أو افتخارهم بإطعام الطعام عندما تهب ریح الشمال كما يقول سويد بن أبي كاهل اليشكري مفتخراً بقومه بني بكر:

(١) اللغة والمجتمع - د. عبد الواحد وافي - دار نهضة مصر - ١٩٧١م - ٧٧.

(٢) المدخل إلى تاريخ الفكر العربي الإسلامي - د. حسين الصديق - منشورات جامعة حلب - ١٩٩١م - ٢٢.

(٣) اكتفى الباحث ببعض هذه المشاهد الصحراوية، وذلك لأنه تناول بالبحث في ذات الموضوع، وعلى ذات المنهج في بحوث أخرى مستقلة: أثر الإبل، وكذلك أثر السحب والأمطار، وأثر الحيوان المستوحش، وأثر النبات والشجر.

(١٢٠) مجلة جامعة السلام (العدد الثاني - أغسطس ٢٠١٢م)

وَإِذَا هَبَّتْ شِمَالاً أَطْعَمُوا فِي قُدُورٍ مُشْبَعَاتٍ لَمْ تُجْعَ^(١)

أما بداية هبوبها من ناحية الجنوب فيعني نهاية الشتاء وحلول فصل الصيف الذي يعقبه الخريف، ولأهمية الرياح في حياتهم استمدوا منها كثيراً من الصور الخيالية في أشعارهم معولّين على بعض صفاتها التي عايشوها في صحرائهم كالسرعة، وشدة القصف، وتقلبها بين الشمال والجنوب، متخذين منها مضرباً للتشبيهات والاستعارات والأمثال في كل هذه الصفات، فقد وجدوا في سرعتها خير ما يشبهون به الأشياء في السرعة، ومنها خيولهم كما في قول عنترة بن شداد العبسي عن فرسه:

وَلِي فَرَسٌ يَحْكِي الرِّيحَ إِذَا جَرَى لِأَبْعَدِ شَأْوٍ مِنْ بَعِيدِ مَرَامٍ^(٢)
وقوله أيضاً:

مِنْ كُلِّ أَدْهَمَ كَالرِّيحِ إِذَا جَرَى أَوْ أَشْهَبَ عَالِي الْمَطَا أَوْ أَشْقَرَ^(٣)

وكثيراً ما صوروا الرياح في استعاراتهم في صورة مطية أو دابة توصلهم إلى غاياتهم كما في قول أبي فراس الحمداني يذكر حبيباً ويزعم لو أن الأمر في يده لركب إليه أعناق الرياح حتى توصله إليه في أسرع وقت:

وَلَوْ أَنِّي أُمْلِكُ فِيهِ أَمْرِي رَكِبْتُ إِلَيْهِ أَعْنَاقَ الرِّيحِ^(٤)

ومن صفات الرياح أيضاً الشدة والقصف؛ ولذا عول عليها الشعراء في وصف الأشياء بهاتين الصفتين كما في قول المتنبي مستمداً من الرياح تشبيهين لممدوحه إذ يشبهه بالرياح في شدة بطشه بالأعداء من ناحية، كما يشبه سرعته في الندى بسرعتها في الهبوب من ناحية أخرى:

أَشَدُّ مِنَ الرِّيحِ الْهَوْجُ بَطْشاً وَأَسْرَعُ فِي النَّدى مِنْهَا هُبُوباً^(٥)

(١) المفصليات، ص ١١٣.

(٢) ديوان عنترة العبسي - دار القلم - بيروت، ص ١٩٣.

(٣) المصدر السابق، ص ١٤١.

(٤) ديوان أبي فراس الحمداني - دار الكتب العلمية - بيروت، ص ٤٩.

(٥) شرح ديوان المتنبي - شرح عبد الرحمن البرقوقي - دار الكتاب العربي - بيروت ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م ٢٦٩/١.

ويستمد الشريف الرضي من قصف الرياح للغصون صورة فنية في تشبيهه لفعل المشيب في الرؤوس إذ يشبهه بقصف الريح أعلى الغصون الرطاب:

تَحْطَى الْمَشِيبُ إِلَى رَأْسِهِ وَقَدْ كَانَ أَعْلَى قِيَابِ الشَّبَابِ
كَذَاكَ الرِّيحُ إِذَا اسْتَلَّامَتْ تَقْصِفُ أَعْلَى الْغُصُونِ الرِّطَابِ^(١)

كما يشبه عزائم قوم في شدتها بالرياح:

عَزَائِمُ كَالرِّيحِ مَرَرْنَ رَهَوًّا عَلَى الْأَقْطَارِ مِنْ دَانٍ وَنَاءٍ^(٢)

ومن صفات الرياح التي استوحى منها الشعراء صورهم الفنية أيضاً التقلب في مهبها بين الشمال والجنوب تبعاً لتعاقب الفصول، فهي لا تستقر على حال واحدة، فهذه الحالة أوحى للمعري بتشبيه الملك في تقلبه بالرياح حيناً تجري قبولاً، وحيناً دبوراً، أي من المغرب حيناً ومن المشرق حيناً آخر:

وَمَلِكٌ كَالرِّيحِ جَرَتْ قَبُولٌ فَلَمْ تَلْبَثْ وَأَعْقَبَتْ الدَّبُورُ^(٣)

ومن صفاتها التي استوحى منها الشعراء صورهم الخيالية أيضاً ديمومة هبوبها مثلما في قول أبي نواس إذ شبه توالي الحوادث على نفسه بديمومة هبوب الرياح:

إِنَّ الْحَوَادِثَ كَالرِّيحِ حَ عَلَيَّكَ دَائِمَةُ الْهُبوبِ^(٤)

وقد يكون لهبوب الرياح أيضاً أثر في خيال من جرب ركوب البحر، إذ إنه قد يكون من أحب الأشياء إليهم حيناً، كما يكون من أبغض الأشياء إليهم حيناً آخر، فهم يحبونه عندما يحتاجون إليه كي يدفع بسفنهم الشراعية ليبلغوا عليها مقاصدهم، كما أنهم يبغضونه عندما يتجاوز القدر الذي يدفع بسفنهم فيثير الأمواج التي ربما تكون سبباً في غرق سفنهم ومن ثم هلاكهم، فمن أمثلة إفادتهم من الحالة الأولى في

(١) ديوان الشريف الرضي - دار صادر - بيروت - ١٩٩٤م - ١/١٢١.

(٢) المصدر السابق، ١٥/١.

(٣) ديوان لزوم ما لا يلزم - أبو العلاء المعري - دار الجيل - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م ١/٢٦٢.

(٤) ديوان أبي نواس - الحسن بن هاتئ - تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ص ٤٦٢.

بعض المشاهد الصحراوية وأثرها في بناء الصورة الفنية في الشعر القديم

رفد خيالهم الشعري قول الإمام علي كرم الله وجهه حاثاً على ضرورة أن يغتنم المرء الفرصة المواتية وألا يضييعها مخافة ألا تواتيه مرة أخرى:

إِذَا هَبَّتْ رِيَّاحُكَ فَأَغْتَمَّهَا فَعَقَّبِي كُلُّ خَافِقَةٍ سُكُونُ

ومن الحالة الثانية لهبوب الرياح يستمد أبو الطيب المتنبي تشبيهه لعدم تصرف الأمور على الوجه الذي يحبه المرء بمجيء الرياح بما لا تشتهي السفن:

مَا كُلُّ مَا يَنْمَتِي الْمَرْءُ يُدْرِكُهُ تَجْرِي الرِّيحُ بِمَا لَا تَشْتَهِي السُّفُنُ^(١)

السراب:

السراب أو الآل من المظاهر التي ألّفها الناس في الصحراء ويكون ظهوره نهاراً دليلاً على شدة الحرارة؛ ولذا كثر ذكره في الشعر العربي في المواضع التي يصف فيها الشعراء الصحراء بشدة الحرارة مثلاً في قول الشاعر الأعشى:

وَبَيْدَاءُ يَلْعَبُ فِيهَا السَّرَا بٌ لَا يَهْتَدِي الْقَوْمُ فِيهَا مَسِيرَا

قَطَعْتُ إِذَا سَمِعَ السَّامِعُو نَ لِلْجُنْدُبِ الْجَوْنِ فِيهَا صَرِيرَا^(٢)

وكذلك قول كعب بن زهير يذكر ناقته بشدة نشاطها وقت الهجرة:

كَأَنَّ أَوْبَ ذُرَاعِيهَا وَقَدْ عَرِقَتْ وَقَدْ تَلَفَعَ بِالْقَوْرِ الْعَسَاقِيلُ

وَقَالَ لِلْقَوْمِ حَادِبِهِمْ وَقَدْ جَعَلَتْ وَرُقُ الْجَنَادِبِ يَرْكُضْنَ الْحَصَى قِيلُوا

شَدَّ النَّهَارُ ذُرَاعَا عَيْطِلٍ نَصَفَ قَامَتْ فَجَاوَبَهَا نُكْدٌ مَثَاكِيلُ^(٣)

علاوة على ذكر الآل ووصفه في الشعر العربي فقد أوحى مظهره المخادع للعربي بصور خيالية عديدة رسخت في مخيلته، إذ يظهر في صورة ماء يترقق فيحسبه الناظر إليه ماء حتى إذا ما وصل إلى موضعه لم يجده شيئاً. فلنقرب هذه الصورة الخيالية من

(١) شرح ديوان المتنبي، ٣٦٦/٤.

(٢) شرح ديوان الأعشى - دار الكتاب العربي بيروت - الطبعة الثانية ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، ص ٦١.

(٣) ديوان كعب بن زهير - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م ٦٤ * الأوب: الحركة. القور: الجبال الصغيرة. العساquil: السراب. ورق الجنادب: ذات اللون الأورق وهو الأزرق يميل إلى السواد. العيطل: المرأة الطويلة. نصف: امرأة في منتصف العمر. النكد المثاكيل: أراد نماء تكاثر عليهن النكد بفقد أقاربهن فهن متعودات على النكل.

أخيلتهم ضرب بها الله سبحانه وتعالى المثل، مشبهاً بها أعمال الكافرين كما في الآية السابقة. فهذه الصورة الخيالية السابقة المستوحاة من تجارب العرب مع السراب أفاد منها شعراؤهم في كثير من أغراض الشعر ومعانيه، وخاصة شعراء العصور التالية للإسلام وربما لم ترد هذه الصور في الشعر الجاهلي - حسب ما اطلع عليه الباحث - ما يؤكد أنها مظهر من مظاهر تأثر الشعراء بمعاني القرآن الكريم في معانيهم، فمن أمثلة تأثرهم بهذه الصورة أنهم إذا أرادوا أن يتغزلوا وجدوا فيها خير المثل للمحبة التي تمنىهم بالوصال ولا تقي، فها هو عمر بن أبي ربيعة يعاتب محبوبته، فيشبه نفسه في تخليه عن كل من كان سواها من الفتيات اللاتي كن يبادلنه المحبة والوصل؛ طمعاً في وصل هذه المحبة التي منته بالوصال ثم امتعت عنه بالذي يريق ماء عند الهاجرة للمع سراب خدعه، وذلك:

وَتَرَكْتَنِي لَا بِالْوَصَالِ مُتَمَعًا مِنْهُمْ وَلَا أَسْقَيْتَنِي بِثَوَابِ
فَقَعَدْتُ كَالْمُهْرِقِ فَضْلَةَ مَائِهِ فِي حَرٍّ هَاجِرَةٍ يَلْمَعُ سَرَابٌ^(١)

وكذلك يرى بشار محبوبته في صورة سراب يبدو قريباً للناظر حتى إذا ما وصله اضمحل ذلك السراب:

أَمْسَكْتُ عَنِّي الرُّقَادَ قَتَاةً دَارُهَا الْخَبْتُ وَالرُّبَى وَالْقِيَابُ
كَسَرَابِ الْمَوَاةِ تُبْصِرُهُ الْعَيَّةُ نُوَّانٍ حَيْثُتُهُ اِضْمَحَلَّ السَّرَابُ^(٢)

وقريب من الصورة السابقة كثيراً ما وجد الشعراء في تجاربهم مع السراب خيراً ما يعبرون به عن معني الخداع وإخلاف العهد، كما في قول جرير يهجو قوم الفرزدق ويعيرهم بخداعهم للزبير بن العوام وخذلانهم له فيشبه خداعهم له بخداع السراب للمرء:

أَجِيرَانَ الزُّبَيْرِ غَرَّرْتُموهُ كَمَا اغْتَرَّ الْمُشَبَّهَ بِالسَّرَابِ^(٣)

ويشبه أبو تمام وعوداً كاذبة بريعان السراب:

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ص ٥٤.

(٢) ديوان بشار بن برد - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م، ١/٣٣٢.

(٣) ديوان جرير - جرير بن عطية الخطفي - دار صادر - بيروت، ص ٢٩.

عِدَاتُ كَرِيعَانَ السَّرَابِ إِذَا جَرَى تُشْتَرُّ عَنْ مَنَعٍ وَتُطَوَّى عَلَى مَظَلٍّ^(١)
أما الشريف الرضي فيعاتب نفسه على تردها في الأمانى التى يمّني بها نفسه ولا
تتحقق فيشبهه تلك الأمانى بالسراب الذي يلوي بناظره:

إِلَى كَمِّ ذَا التَّرْدُدِ فِي الْأَمَانِي وَكَمِّ يُلَوِي بِنَاضِرِي السَّرَابِ^(٢)
وكذلك يشبه بعض مواعيد الرجال بالسراب في قوله يمدح رجلاً ويقارنه بمن سواه
أولئك الذين لا يصدقون في مواعيدهم:

بِلا شَافِعٍ يُعْطِي الَّذِي أَنْتَ طَالِبٌ وَبَعْضُ مَوَاعِيدِ الرِّجَالِ سَرَابٌ^(٣)
ولأن السراب يظهر على غير حقيقته، ولا وجود له في الحقيقة ولا وزن لهن فقد وجد
فيه الشعراء مثلاً مناسباً يشبهون به الأشياء في الظهور على غير حقيقتها، وفي خفتها،
كما في قول جرير يشبه قوماً بالسراب:

نُحِلُّ عَلَى التَّنْفَرِ الْمَخُوفِ وَأَنْتُمْ سَرَابٌ عَلَى قِيَاءَةٍ يَتَرَيَّعُ^(٤)
وكذلك يهجو البحتري قوماً فيشبه أصولهم بالسراب:

وَإِذَا قَلَيْتُ أَصُولَهُمْ رَجَعُوا إِلَى نَسَبِ كَرِيعَانَ السَّرَابِ لَبِيسٍ^(٥)
وعلاوة على معنى الخداع والظهور على غير الحقيقة المرتبطة كثيراً بالسراب يلتفت
أبو تمام إلى معنى آخر له صلة وثيقة بالسراب، وهو بياضه وإشراقه ليستمد منه تشبيهاً
لممدوحه في هاتين الصفتين، ليخرج بذلك عن تشبيه الرجل بالسراب من دائرة الهجاء
إلى دائرة المدح كما في قوله عن ممدوحه:

كَالسَّرَابِ الرَّقْرَاقِ فِي النَّعْمِ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ مِثْلَهُ فِي الْخِدَاعِ^(٦)

(١) ديوان أبي تمام - بشرح الخطيب التبريزي - تحقيق محمد عبده عزام - دار المعارف - القاهرة - الطبعة الرابعة ٥٢٤/٤.

(٢) ديوان الشريف الرضي، ١/١٢٦.

(٣) المصدر السابق، ١/٦٧.

(٤) ديوان جرير، ص ٢٨٦.

(٥) ديوان البحتري - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٤م - ١٩٩٤م ٢/٦٢٨.

(٦) ديوان أبي تمام، ٢/٣٤١.

وما قوله في عجز البيت: (إلا أنه ليس مثله في الخداع) إلا دليل على كثرة ارتباط تشبيه الرجل بالسراب في الخداع في أقوالهم. وكذلك يستمد البحري من صورة سيلان السراب في القفار تشبيهاً لسيلان الدروع على الكماة:

بيضُ نَسِيلُ على الكُماة فُضُولُها سَيْلُ السَّرابِ بقَفْرةٍ يَبْداءُ^(١)

الكثيب والدعص:

الكثبان والأدعاص - جمع دعص وهو قور من الرمل مجتمع^(٢). وهو من المشاهد التي لا تكاد تخطئها العين في أي موقع من الصحراء لكثرتها، ولذا فقد احتلت حيزاً واسعاً من الخيال الأدبي لساكني الصحراء، يدل على ذلك كثرة التشبيهات التي استوحوها منها، وأكثر ما وردت في وصفهم للمحبة، ثم قليلاً في وصفهم لرواحلهم، ما قد يوحي بمحبتهم لتلك الكثبان والأدعاص أيضاً، لكثرة ارتباط التشبيه بالعاطفة عندهم إذ إنهم كثيراً ما يشبهون الشيء المحبوب بشيء محبوب آخر، وكذلك المشنوء بمشنوء آخر، ولعل هذا ما يحس من وراء مثل تشبيه ذي الرمة للرمل بأوراك العذاري في قوله:

وَرَمَلٍ كَأُوراكِ العَذاري قَطَعَتْهُ إِذا جَلَلَتْهُ المَظْلِماتُ الحَنادِسُ^(٣)

وهنا لا يخفى ما يوحي به هذا التشبيه من استملاح الشاعر ذي الرمة واستحسانه للمشبه والمشبه به معاً، أي الرمل وأوراك العذري وإنزالهما من نفسه منزلة واحدة، ولعل هذا ما انتهجه الشعراء أيضاً في تشبيههم لأكفال محبوباتهم بالكثبان والأدعاص في الضخامة والبروز والترجرج قلباً لصورة التشبيه السابقة عند ذي الرمة الذي شبه مشهداً من مشاهد الصحراء ببعض محاسن المحبة، فهم يشبهون بعض محاسنها بمشهد من مشاهد الصحراء، ومن ذلك قول عبيد بن الأبرص يشبه كفل محبوبته بكثيب الرمل:

صَعْدَةُ ما عَلَا الحَقِيبَةُ مِنْها وَكَثِيبٌ ما كانَ تَحْتَ الحِقَابِ^(٤)

(١) ديوان البحري، ٢٣/١.

(٢) لسان العرب - أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم بن منظور الإفرقي - دار صادر - بيروت - الطبعة الأولى - بدون تاريخ/ ٥/ ٢٦٢.

(٣) ديوان ذي الرمة - غيلان بن عقبة المضري - دار الأرقم - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ص ٢٥٦.

(٤) ديوان عبيد بن الأبرص - دار القلم - بيروت - ص ٢٤.

بعض المشاهد الصحراوية وأثرها في بناء الصورة الفنية في الشعر القديم

وكذلك تشبيه عمرو بن قميئة كفل محبوبته بدعص النقا:

إلى كَفَلٍ مِثْلِ دَعَصِ النِّقَا وَكَفٌ تُقَلِّبُ بِيضاً طِفْلاً^(١)

ومثله قول الأعشى:

هَرَكُوَّةٌ مِثْلُ دَعَصِ الرَّمْلِ أَسْفَلُهَا مَكْسُوَّةٌ مِنْ جَمَالِ الْحُسْنِ جِلْبَاباً^(٢)

وكذلك يشبه النابغة الذبياني كفل محبوبته (نعم) بدعص الرملة الهاري:

تَلَوْتُ بَعْدَ إِفْتِضَالِ الْبُرْدِ مِثْرَهَا لَوْثاً عَلَى مِثْلِ دَعَصِ الرَّمْلَةِ الْهَارِي^(٣)

ولعله في قوله: (الهاري) بمعنى المتهايل أي الذي يجتمع ثم ينهار - في صفة الدعص ما يوحي باهتزاز كفلها وترجرجه لضخامته، ويكون بذلك قد أضاف الحركة إلى هذا المشهد الذي يصفه ليقرب بين صورتَي المشبه والمشبه به من عدة وجوه للشبه بينهما. ولعل هذا نفسه ما رمي إليه الشاعر جرير في تشبيهه لكفل محبوبته بنقا الكثيب الذي تراكمه الرياح حتى يبلغ أعلى تراكمه ثم تهيله عند ذلك:

كَتَفَا الْكَثِيبِ تَهَيْلَتْ أَعْطَافُهُ وَالرِّيحُ تُجْبِرُ مَتْنَهُ وَتُهِيلُ^(٤)

وهذا أيضاً ما رمي إليه مجنون ليلى في وصفه للكثيب الذي شبه به كفل محبوبته بأنه هيال:

مِنْ الْبَيْضِ كَوْمَاءُ الْعِظَامِ كَأَنَّمَا يُلَاثُ عَلَى دَعَصِ هَيْالٍ إِزَارُهَا^(٥)

ومثله أيضاً وصف بشار للدعص بأنه مرمار:

حَوْرَاءُ كَالرِّيمِ أَعْلَاهَا إِذَا خَرَجَتْ تَهْتَرُ فِي كَفَلٍ كَالدَّعَصِ مَرْمَارِ^(٦)

(١) ديوان عمرو بن قميئة - تحقيق د. خليل إبراهيم عطية - عالم الكتب - بيروت - الطبعة الثانية ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م،

ص ٥٣.

(٢) شرح ديوان الأعشى، ص ٥٠.

(٣) ديوان النابغة الذبياني - دار القلم - بيروت - بدون تاريخ، ص ٥٦.

(٤) ديوان جرير، ص ٣٧٨.

(٥) ديوان مجنون ليلى - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، ص ٩٣.

(٦) ديوان بشار بن برد، ١٦١/٣.

ولعل هذا أيضاً ما رمى إليه عمر بن أبي ربيعة من وصفه للدعص بأنه قد حف بالأنقاء لأن المعهود عن الأنقاء تهايلها وإن لم يصرح به الشاعر في قوله:

تَعْقِدُ المِرطَ فَوْقَ دَعَصٍ مِنَ الرَّمِّ لِي عَرِيضٍ قَدْ حُفَّ بِالْأَنْقَاءِ^(١)

ويتسع الباب في الشعر العربي في كل عصوره لتشبيه الكفل بالكثير أو الدعص في عدة صور متباينة، بل إن الأمر لم يعد قصراً على ساكني الصحراء فحسب بل أصبح من التشبيهات المعهودة والمشاعة في الأدب العربي حتى بين شعراء الحضر يقلدون فيه السابقين من شعراء البادية حتى وصل الأمر إلى شعراء الأندلس على الرغم من بعد طبيعة بلادهم عن الصحراء، وعلى سبيل المثال قول ابن خفاجة يصف محبوبته:

أَفَاضَتْ عَلَى عِطْفِ الْقَضِيبِ مَلَاءَةً وَلَفَّتْ عَلَى ظَهْرِ الْكَثِيبِ إِزَاراً^(٢)

ومما يدل على أن تشبيه كفل المحبوبة بالكثير قد صار من التشبيهات المعهودة عند العرب أنهم قد يكونون عن المحبوبة بالكثير ويكتفون بذلك عن ذكرها مثلما في قول ابن خفاجة أيضاً:

سَلَّمَ الْفُصْنَ وَالْكَثِيبُ عَلَيْنَا فَعَلَى الْفُصْنِ وَالْكَثِيبِ السَّلَامُ^(٣)

ويمثله في هذا المعنى قول أبي فراس الحمداني مناجياً محبوبته ومكنياً عنها بالكثير والفصن:

يَا كَثِيباً مِنْ تَحْتِ غُصْنِ رَطِييٍ يَنْتَبِئُ مِنْ تَحْتِ بَدْرِ مُنِيرٍ^(٤)

ولعل تكنيتهم عن المحبوبة بالكثير والفصن هنا تأتي بمنزلة الكناية عنها بالنخلة والبيضة في أقوالهم، ولذا يصبح من المعلوم أن قولي ابن خفاجة وأبي فراس لا يحملان على ظاهر مدلول ألفاظهما إذ ليس المقصود بالكثير والفصن كثيراً وغصناً حقيقيين بل ما يشابههما وهو المحبوبة.

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص ٩.

(٢) ديوان ابن خفاجة - إبراهيم بن خفاجة الأندلسي - تحقيق السيد مصطفى غازي - مطبعة منشأة دار المعارف - الإسكندرية - بدون تاريخ، ص ٢٢٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٦٢.

(٤) ديوان أبي فراس الحمداني، ص ٧٠.

بعض المشاهد الصحراوية وأثرها في بناء الصورة الفنية في الشعر القديم

أما أبو تمام فهو يرى أن في تشبيه كفل المحبوبة بالكثير منقصة في وصفه بالحسن، إذ يرى أن حسنه أجل وأسمى من أن يشبه بالكثير فقال:

لَكَ قَدْ أَدَقُّ مِنْ أَنْ يُحَاكِيَ بِقَضِيْبٍ فِي الْحُسْنِ أَوْ بِكَثِيْبٍ^(١)

ولعل هذا مرجعه إلى تأثير الحياة الحضرية على الشاعر الأمر الذي دعاه إلى الخروج على المألوف عند شعراء البادية، ولكنه مع ذلك يجد نفسه أحياناً منساقاً مع المألوف فيمضي في درب السابقين فيشبه كفل المحبوبة بالكثير وقوامها بالبان:

فَوْقَهُ الْبَانُ وَمَنْ تَحْدُ تَوَثَّتِيْهِ كَثِيْبٌ^(٢)

بجانب تشبيه كفل المحبوبة بالكثير فقد يخرج الشعراء إلى تشبيه أشياء أخرى به، منها ما هو قريب منه كتشبيه عبيد بن الأبرص تمايل محبوبته عليه بميلان الكثير:

فَتَعَاطَيْتُ جِيْدَهَا ثُمَّ مَالَتْ مَيْلَانَ الْكَثِيْبِ بَيْنَ الرِّمَالِ^(٣)

فبالرغم من أن المألوف عند الشعراء تشبيه المحبوبة في ميلانها بالفصن إلا إن عبيداً هنا قد شبهها بالكثير ربما لأنه أراد بهذا التشبيه اكتنازها وضخامتها مع لينها وتأودها.

وقد يخرج الشعراء في تشبيههم بالكثير والدعص عن دائرة وصف المحبوبة إلى وصف أشياء أخرى وتشبيهها، كتشبيه امرئ القيس كفل فرسه بالدعص إذ يقول:

لَهُ كَفَلٌ كَالِدَعَصِ لِبَدُهُ النَّدَى إِلَى حَارِكٍ مِثْلِ الْغَبِيْطِ الْمَذْأَبِ^(٤)

ومن تلك التشبيهات أيضاً تشبيه عبيد بن البرص لحارك ناقته بالكثير في تراكمه وارتفاعه:

عِيْرَانَةٌ مُّوْجَدٌ فَقَارُهَا كَأَنَّ حَارِكَهَا كَثِيْبٌ^(٥)

(١) ديوان أبي تمام، ١٧٢/٤.

(٢) المصدر السابق، ٢٢٦/٤.

(٣) ديوان عبيد بن الأبرص، ص ٧٨.

(٤) ديوان امرئ القيس، ص ٣٣.

(٥) ديوان عبيد بن الأبرص، ص ١٥.

ومثله قول زهير في هذا المعنى أيضاً:

حَرَفٌ عَذَابِرَةٌ تَجِدُ بِرَاكِبٍ وَكَأَنَّ حَارِكَهَا كَثِيبٌ أَحَدَبٌ^(١)

ولعله في تشبيه امرئ القيس لكفل فرسه، وكذلك في تشبيه عبيد وزهير لحاركي ناقتيهما بالكثيب أو الدعص ما يوحي بشدة محبة هؤلاء الشعراء لرواحلهم، حتى أنهم قد أنزلوها منزلة المحبوبة، كما يبدو في تشبيههم لأعضاء رواحلهم بما تشبه به مفاتن المحبوبة عندهم فصار المشبهان - مع بعد ما بينهما - عندهم سيان.

الأثافي:

الأثافي حجارة ثلاثة توضع عليها القدر عند موقد النار فيسود لونها من الدخان والحرق، وعندما يرحل القوم عن الديار يتركونها وراءهم فتبقى مع النوى - حفيرة تحفر حول الخيمة لتحجز عنها مياه الأمطار - من أبرز المعالم التي يستدل بها الشعراء على ديار محبوباتهم، ولذا كثر ذكرهما في وصف الأطلال مثلما في قول زهير بن أبي سلمى:

وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عَشْرِينَ حِجَّةً فَلَأَيَّ عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ التَّوَهُّمِ

أَثَافِي سَفْعاً فِي مَعْرَسِ مِرْجَلٍ وَنُؤْيَا كَجَذَمِ الْحَوْضِ لَمْ يَنْتَلَمْ^(٢)

وكذلك قول أبي تمام:

عَفَّتْ آيَاتُهُنَّ وَأَيُّ رُبْعٍ يَكُونُ لَهُ عَلَى الرِّمَنِ الْخِيَارُ

أَثَافٍ كَالْخُدُودِ لُطْمَنَ حُزْنًا وَنُؤْيٍ مِثْلَمَا انْقَصَمَ السَّوَارُ^(٣)

علاوة على وصف الأثافي والنوى في الشعر العربي بصفتهما من معالم الأطلال المهمة، فقد أوحى الأثافي للشعراء العرب بصور خيالية عديدة أفادوا منها في التعبير عن كثير من المعاني الشعرية الأخرى في كل أغراض الشعر العربي المختلفة، فقد ارتبطت الأثافي في أخیلتهم بمعاني العظم والصلابة، فكثيراً ما شبه الشعراء بها القوم العظام الشداد، كما في قول الفرزدق يهجو قوماً ويعيرهم بأنهم لم يكونوا من

(١) شرح ديوان زهير، ص ٢٦٧ .

(٢) المصدر السابق، ص ٣٥ .

(٣) ديوان أبي تمام، ١٥٣/٢ .

قيس عيلان أو أثافيها، مستعيراً الأثافي لساداتها العظام تشبيهاً لهم بالأثافي في الصلابة وكثرة الارتكاز عليها:

فَمَا أَنْتُمْ مِنْ قَيْسِ عَيْلَانَ فِي الدُّرَى وَلَا مِنْ أَثَافِيهَا الْعِظَامِ الْجَمَاجِمِ^(١)
ويمدح أبو تمام قوماً فيشبههم بعظمى الأثافي من نزار:

هُمْ عِظْمَى الْأَثَافِي مِنْ نِزَارٍ وَأَهْلُ الْهَضْبِ مِنْهَا وَالنِّجَادِ^(٢)
وفي قصيدة أخرى يمدح ثلاثة من القوم فيشبههم بالأثافي الثلاثة:

فَأَنْتَ سَنَامٌ لِلْفَخَارِ وَغَارِبٌ وَصِينَاكُ مِنْهُ مِنْكَبَاهُ وَكَاهِلُهُ
وَلَيْسَتْ أَثَافِي الْقَدْرِ إِلَّا ثَلَاثُهَا وَلَا الرُّمْحُ إِلَّا لَهْذَمَاهُ وَعَامِلُهُ^(٣)

ومثلما شبه الشعراء العرب القدامى الرجال العظام بالأثافي كذلك كثروا بها عن المصائب العظام والدواهي الجليلة كما كنوا أيضاً بينات الدهر، ومما جاء في تكنيتهم عن المصائب بالأثافي قولهم: (رماه الله بثالثة الأثافي)^(٤). ومما جاء في أشعارهم من هذا الباب أيضاً قول علقمة الفحل مورداً الحكمة عن الدهر وتقلب الأحوال والأيلولة إلى الفناء:

بَلْ كُلُّ قَوْمٍ وَإِنْ عَزَّوْا وَإِنْ كَثُرُوا عَرِيفُهُمْ بِأَثَافِي الشَّرِّ مَرْجُومٌ^(٥)
وقريب منه قول الخنساء في ذات المعني:

كُلُّ إِمْرِيٍّ بِأَثَافِي الدَّهْرِ مَرْجُومٌ وَكُلُّ بَيْتٍ طَوِيلِ السَّمَكِ مَهْدُومٌ^(٦)

أما الشريف الرضي فيشبه قصائده التي يهجو بها القوم في صلابتها وشدتها بثالثة الأثافي:

(١) ديوان الفرزدق، ص ٥٦٥.

(٢) ديوان أبي تمام، ١/٣٧٢.

(٣) المصدر السابق، ٤/١١١.

(٤) مجمع الأمثال- أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني- تحقيق محمد محي الدين عبد الدين عبد الحميد-

دار المعرفة - بيروت ١/٢٨٧.

(٥) شرح ديوان علقمة الفحل، ص ٤٣.

(٦) ديوان الخنساء، ص ١٠٥.

أَسْرُبُهُنْ أَقْوَاماً وَأَرْمِي أَقْيَوماً بِثَالِثَةِ الْأَثَايَةِ^(١)

ولصلابة الأثاي في وصعوبة ملاطمتها يهجو الشريف الرضي قوماً بالبخل وتهيب العطاء، فيشبه أيديهم إذ تقدم على النوال بتلاطم الأثاي:

تَهَابُ النَّدَى أَيَدِيهِمْ فَكَأَنَّمَا تُلَاطِمُ مِنْ بَذْلِ النُّوَالِ الْأَثَايَا^(٢)

وقد يشبه الشعراء بالأثاي في صفة السواد دون الالتفات إلى صفاتها الأخرى، كما في قول أبي تمام يهدد قوماً بشر هجائه الذي ستسودّ منهم وجوههم فتصير كالأثاي السود:

لَأَصْبَحَتْ كَالْأَثَايِ السُّفْعِ أَوْجُهُكُمْ سَوْدَاً مِنَ الْعَارِ لَا سَوْدَاً مِنَ الْحُمَمِ^(٣)

أما ابن خفاجة فيذهب مع خياله إلى مدى بعيد، فيتخيل شبابه في صورة الدار التي كانت عامرة فأقفرت، فأصبحت طللاً دارساً، وحتى يكمل صورة الطلل المتخيلة شبه ما بقي من عذاره بالنؤى الدائر، وشبه ما بقي من خيلانه السود بالأثاي:

أَقْوَى مَحَلٍّ مِنْ شَبَابِكَ أَهْلٌ فَوَقَفْتُ أُنْدَبُ مِنْهُ رَسْماً عَافِيَا

مَثَلُ الْعِذَارِ هُنَاكَ نُؤْيَا دَائِرَاً وَأَسَوَدَّتِ الْخَيْلَانُ فِيهِ أَثَايَا^(٤)

الدلو:

نسبة لقلة الأنهار والبحيرات أو انعدامها في الصحراء كانت الآبار المصدر الأول للمياه الدائمة فيها، ولذا تكون الدلو من الأدوات المهمة في الصحراء لأنها الوسيلة الوحيدة لجلب الماء من قاع تلك الآبار، وبما أنه لا غنى للعربي في الصحراء عن الماء في شربه وسقي ماشيته وأموره الأخرى، فإنه لا غنى له عن الدلو التي تعد من أهم الأدوات وأقربها منه في حياته اليومية لذا احتلت الدلو حيزاً واسعاً من خياله الأدبي، فكثيراً ما عول عليها في ضرب التشبيهات والأمثال، ولعله من أكثر التشبيهات المستوحاة من مشاهداتهم للدلاء وخبرتهم بها وروداً ودوراناً في أشعارهم أنهم يشبهون عيونهم عند فراق من يحبونهم بالدلاء،

(١) ديوان الشريف الرضي، ١٧/٢.

(٢) المصدر السابق، ٥٨٩/٢.

(٣) ديوان أبي تمام، ١٩١/٣.

(٤) ديوان ابن خفاجة، ص ٦١.

ويشبهون ما يجري منها من دمع بالماء الذي يفرغ من تلك الدلاء، ومن ذلك قول علقمة الفحل إذ شبه عينه بالغرب أي الدلو العظيمة التي تمتلئها ناقة دهماء:

فَالْعَيْنُ مِنِّي كَأَنَّ غَرْبًا تَحُطُّ بِهِ دَهْمَاءُ حَارِكُهَا بِالْقَتَبِ مَخْزُومٌ^(١)

وكذلك يشبه النابغة الذبياني دموعه عند وقوفه على ديار محبوبته بالماء يفرغ من الغروب:

أَسْأَلُهَا وَقَدْ سَفَحَتْ دُمُوعِي كَأَنَّ مَفِيزَهُنَّ غُرُوبٌ شَنٌّ^(٢)

ويشبه زهير بن أبي سلمى عينيه حال بكائهما لرحيل محبوبته بغربين نيط حبلاهما بناقة مذلة لتسقي بهما جنة:

كَأَنَّ عَيْنِي فِي غَرْبِي مَقْتَلَةٌ مِنَ النِّوَاضِحِ تُسْقِي جَنَّةَ سَحْقًا^(٣)

وترد مثل هذه الصورة مرة أخرى في شعره إذ يقول:

كَأَنَّ عَيْنِي وَقَدْ سَالَ السَّكَلِيلُ بِهِمْ وَعَبْرَةٌ مَا هُمْ لَوْ أَنَّهُمْ أَمَمٌ
غَرْبٌ عَلَى بَكْرَةٍ أَوْ لَوْلُو قَلَقٌ فِي السِّلَكِ خَانَ بِهِ رَبَّائُهُ النُّظْمُ^(٤)

وقريب منه قول لبيد في ذات الموضوع:

فَصَرَفْتُ قَصْرًا وَالشُّؤُنُ كَأَنَّهَا غَرْبٌ تَحْتُ بِهِ الْقُلُوصُ هَزِيمٌ^(٥)
وكذلك قوله أيضاً:

كَأَنَّ دُمُوعَهُ غَرِيبًا سَنَاةً يُحِيلُونَ السَّيْجَالَ عَلَى السَّيْجَالِ^(٦)

ومثله أيضاً قول الشاعر عمر بن أبي ربيعة:

عُجِبْتُ الْقُلُوصَ بِهِ وَعَرَجَ صُحْبَتِي وَكَفَفْتُ غَرْبَ دُمُوعِ عَيْنٍ تَسْجُمُ^(٧)

(١) شرح ديوان علقمة الفحل - الأعلام الشتري - دار الكتاب العربي - بيروت - ط أولى - ١٤١٤م - ١٩٩٣م، ص ٣٥.

(٢) ديوان النابغة الذبياني، ص ١٢٨.

(٣) شرح ديوان زهير، ص ٦٥.

(٤) المصدر السابق، ص ١٢٧.

(٥) ديوان لبيد بن ربيعة - شرح الطوسي - دار الكتاب العربي - بيروت - للطبعة الثانية ١٤١٧م - ١٩٩٦م، ص ١٨٢.

(٦) المصدر السابق، ص ١٥٣.

(٧) ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص ٣١١.

ويرد المعنى ذاته في قول البحتري:

غُرُوبُ دَمْعٍ مِنَ الْأَجْفَانِ تَهْمَلُ وَحُرْقَةُ بَغْلِيلِ الْحُزَنِ تَسْتَعِلُ^(١)

ومن المشاهد الأخرى ذات الصلة بالدلو، والتي استهوت الشعراء فاستوحوا منها صوراً خيالية أفادوا منها في التعبير عن بعض معانيهم الشعرية الأخرى، مشهد حركة الدلو عندما ينقطع حبلها أو تنفصم عرونها فتتهوي مسرعة إلى القاع، هذه الحركة السريعة اتخذها الشعراء مضرب التشبيه في السرعة، وكثيراً ما شبهوا بها حمر الوحش في سرعة عدوها، مثلما في قول زهير بن أبي سلمى يذكر حمار الوحش ويصفه مع أخته:

فَشَجَّ بِهَا الْأَمَاعِزَ فَهِيَ تَهْوِي هُوِيَّ الدَّلُوْ أَسْلَمَهَا الرِّشَاءُ^(٢)

وكذلك يشبه لبید بن ربيعة العامري حمار الوحش في عدوه بالدلو حال انقطاع حبلها:

فَهُوَ كَدَّلُو الْبَحْرِيِّ أَسْلَمَهَا ال عَقْدُ وَخَائِتُ آذَانِهَا الْكَرْبَا^(٣)

أما الفرزدق فقد رأى في حركة الدلو حال انقطاع حبلها خيراً ما يشبه به سرعة تقضي الأيام والليالي التي سعد فيها بقربه من مرثية فقال:

وَقَدْ خَانَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ لَيْالٍ وَأَيَّامٌ تَنَاءَى إِلَيْتَامُهَا

كَمَا خَانَ دَلُو الْقَوْمِ إِذْ يُسْتَقَى بِهَا مِنْ الْمَاءِ مِنْ مَتَنِ الرِّشَاءِ إِنْجِذَامُهَا^(٤)

ومن المشاهد الأخرى ذات الصلة بالدلو أيضاً والتي أوحى للشعراء ببعض الصور الخيالية، مشهد حركة اصطكاك الدلو بجانبى البئر عند متحها، فقد أوحى ذلك المشهد للأخطل بتشبيه حركة صك حمار الوحش لأتته حاثاً لها على العدو بحركة الدلو إذ تصطك بجانبى البئر فقال:

تَصَدَّعَ أَحْيَاناً وَحِيناً يَصُكُّهَا كَمَا صَكَ دَلُو الْمَاتِحِ الرَّجَوَانِ^(٥)

(١) ديوان البحتري، ٢/ ٩٠٠.

(٢) شرح ديوان زهير، ص ٧٧.

(٣) ديوان لبید بن ربيعة، ص ٣٣.

(٤) ديوان الفرزدق، ص ٤٦٧.

(٥) ديوان الأخطل - غياث بن غوث التغلبي - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الثانية ١٤١٥ هـ - ١٩٩٨ م، ص ١٢.
(١٣٤) مجلة جامعة السلام (العدد الثاني - أغسطس ٢٠١٢ م)

بعض المشاهد الصحراوية وأثرها في بناء الصورة الفنية في الشعر القديم

وبما أن الدلو هي الأداة الموصلة للماء؛ فقد رأى فيه الشعراء معنى التوصل إلى الأهداف التي يطمحون إليها، فشبهوا به كل ما يوصلهم لما يريدونه مثلما في تشبيه أبي تمام للسيوف والرماح بدلوين يتوصل بهما للذة الحياة من مأكّل ومشرب، وذلك في مدحه للخليفة المعتصم عندما انتصر على الروم في عمورية وقد أنالهم ذلك النصر غنائم كثيرة:

إِنَّ الْجَمَامِينَ مِنْ بِيضٍ وَمِنْ سُمْرٍ دَلُّوا الْحَيَاتِينَ مِنْ مَاءٍ وَمِنْ عُشْبٍ^(١)

ولأن كثرة الدلاء تكدر مورد الماء الذي تهل، منه فقد استوحى حسان بن ثابت الأنصاري من هذا المعنى صورة خيالية استعان بها في وصفه لشعره، معتداً به، ومشبههاً له بالبحر الذي لا تكدره الدلاء:

لِسَانِي صَارِمٌ لَا عَيْبَ فِيهِ وَيَحْرِي لَا تُكَدِّرُهُ الدَّلَاءُ^(٢)

وبما أن متح الدلو من الأمور التي تشق على الضعاف من القوم ثقلها؛ فلا يملئونها، لذا كنى الشعراء بملئها عن معني المقدرة على كل الأمور الصعاب الأخرى التي لا تتأتى إلا بالقوة والشدة، مثلما في قول الفضل ابن العباس اللهبي معتداً بنفسه ومكنياً عن مقدرته وشدته بأنه يملأ الدلو إلى عقد الكرب:

وَأَنَا الْأَخْضَرُ مَنْ يَعْرِفُنِي أَخْضَرُ الْجِلْدَةِ مِنْ بَيْتِ الْعَرَبِ
مَنْ يُسَاجِلُنِي يُسَاجِلُ مَا جِدَا يَمْلَأُ الدَّلُوَ إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ^(٣)

خاتمة:

وبعد فهذه بعض المشاهد الصحراوية التي كان يشاهدها العربي ويعايشها في صحرائه والتي تظهر أن تلك المشاهد الصحراوية المختلفة من رياح، وسراب، وكثبان، ودلاء، وأثاف وما يماثلها، قد علقت بخياله واحتلت حيزاً واسعاً منه فبالإضافة إلى

(١) ديوان أبي تمام، ٦١/١.

(٢) ديوان حسان بن ثابت- دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية، ص ٢١.

(٣) الأغاني- أبو الفرج الأصفهاني- دار الفكر - بيروت - الطبعة الثانية- بدون تاريخ- ١٨٢/١٦.

وصفها في كثير من قصائده مثلت تلك المشاهد الصحراوية مصدر إحياء وخيال مهم للعربي، أفاد منه كثيراً في تعبيره وبناء صورته الخيالية في أدبه شعراً ونثراً، مستعيناً بها في التعبير عن معاني الشعر الأخرى، في الأغراض الشعرية كافة، فاستمد منها تشبيهاته واستعاراته وكناياته التي قرب بها معانيه، فأبداهما في صورة أقرب ما تكون من خيال سامعيه الذين يشاركونه الخبرة والمعرفة الواسعة بتلك المشاهد، الأمر الذي يؤكد تعلق العربي بالصحراء ومشاهدها، حتى أصبحت مصدراً مهماً من مصادر الخيال عنده.

المصادر والمراجع

- (١) خزانة الأدب ولب لباب العرب- عبد القادر بن عمر البغدادي- تحقيق عبد السلام هارون- مكتبة الخانجي- القاهرة- الطبعة الثانية- ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.
- (٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها- دكتور عبد الله الطيب المجذوب- مطبعة دار جامعة الخرطوم للطباعة والنشر ١٩٩١م.
- (٣) المفضليات- المفضل محمد بن يعلى بن عامر الضبي- تحقيق د. عامر الحسين- دار ومكتبة هلال- بيروت- الطبعة الأولى ١٩٩٨م.
- (٤) العمدة- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني- تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد- دار الجيل- لبنان.
- (٥) الجامع لأحكام القرآن- محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي- تحقيق أحمد عبد العليم البردوني- مطبعة دار الشعب- القاهرة- الطبعة الثانية- ١٣٧٢هـ.
- (٦) صحيح مسلم- أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري- المكتبة العصرية- بيروت ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- (٧) اللغة والمجتمع- د.عبدا لواحد وايفي- دار نهضة مصر- ١٩٧١م.

بعض المشاهد الصحراوية وأثرها في بناء الصورة الفنية في الشعر القديم

- (٨) المدخل إلى تاريخ الفكر العربي الإسلامي - د. حسين الصديق - منشورات جامعة حلب - ١٩٩١م.
- (٩) ديوان عنتره العبسي - دار القلم - بيروت.
- (١٠) ديوان أبي فراس الحمداني - دار الكتب العلمية - بيروت.
- (١١) شرح ديوان المتنبّي - شرح عبد الرحمن البرقوقي - دار الكتاب العربي - بيروت ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.
- (١٢) ديوان الشريف الرضي - دار صادر - بيروت - ١٩٩٤م.
- (١٣) ديوان لزوم ما لا يلزم - أبو العلاء المعري - دار الجيل - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- (١٤) ديوان أبي نواس - الحسن بن هانئ - تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- (١٥) شرح ديوان الأعشى - دار الكتاب العربي بيروت - الطبعة الثانية ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- (١٦) ديوان كعب بن زهير - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- (١٧) ديوان عمر بن أبي ربيعة - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- (١٨) ديوان بشار بن برد - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م.
- (١٩) ديوان جرير - جرير بن عطية الخطفي - دار صادر - بيروت.
- (٢٠) ديوان أبي تمام - بشرح الخطيب التبريزي - تحقيق محمد عبده عزام - دار المعارف - القاهرة - الطبعة الرابعة.
- (٢١) ديوان البحتري - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

- (٢٢) لسان العرب - أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي - دار صادر - بيروت - الطبعة الأولى - بدون تاريخ.
- (٢٣) ديوان ذي الرمة - غيلان بن عقبة المضري - دار الأرقم - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- (٢٤) ديوان عبيد بن الأبرص - دار القلم - بيروت.
- (٢٥) ديوان عمرو بن قميئة - تحقيق د. خليل إبراهيم عطية - عالم الكتب - بيروت - الطبعة الثانية ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- (٢٦) ديوان النابغة الذبياني - دار القلم - بيروت - بدون تاريخ.
- (٢٧) ديوان مجنون ليلى - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
- (٢٨) ديوان ابن خفاجة - إبراهيم بن خفاجة الأندلسي - تحقيق السيد مصطفى غازي - مطبعة منشأة دار المعارف - الإسكندرية - بدون تاريخ.
- (٢٩) مجمع الأمثال - أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني - تحقيق محمد محي الدين عبد الدين عبد الحميد - دار المعرفة - بيروت.
- (٣٠) شرح ديوان علقمة الفحل - الأعلام الشنتمري - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الأولى - ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- (٣١) ديوان ليبيد بن ربيعة - شرح الطوسي - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الثانية ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- (٣٢) ديوان الأخطل - غياث بن غوث التغلبي - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الثانية ١٤١٥هـ - ١٩٩٨م.
- (٣٣) ديوان حسان بن ثابت - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية.
- (٣٤) الأغاني - أبو الفرج الأصفهاني - دار الفكر - بيروت - الطبعة الثانية - بدون تاريخ - ١٨٢/١٦.